الحداثة في الأدب العربي

المحاضرة الأولى

مفهوم الحداثة عند الغرب

● أولا/- المصطلح:

أول ما يجب أن نتاوله هو المصطلح نفسه (الحداثة)، وعلاقته بالمصطلح الأجنبي الذي هو الأساس؛ ففي اللغتين الإنجليزية والفرنسية على الأقل انتشرت لفظتان (Modernism و Modernity)، واختلفت الترجمة العربية بين: الحداثة، والعصرنة، والمعاصرة. أما في المعاجم فيكاد يكون الفرق ضيقا في الترجمة؛ ففي المعجم نجد ترجمة كلمة (Modernism) بـ(العصرانية)، و(Modernity) بـ(العصرية). إلا أن المعجم يضيف على معنى كلمة (Modernism) بأنها:

- حركة الفكر الكاثوليكي لتأويل تعاليم الكنيسة على ضوء المفاهيم العلمية والفلسفية السائدة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

- وكذلك بأنها نزعة لاهوتية تحررية "البروتستنتية".

- وبأنها نزعة في الفن الحديث تهدف إلى قطع الصلة بالماضي[1].

إلا أن الدكتور محمد مصطفى هدارة يترجم كلمة (Modernity) بـ(المعاصرة) في مقالة له نشرتها مجلة (الحرس الوطني)[2]، وبـ(العصرية) في محاضرة له عن (الحداثة والتراث)، ويعتبر أن هذه الكلمة تعني: إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن. أما كلمة (Modernism) فيترجمها بـ(الحداثة)، ويقول إنها مذهب أدبي، بل نظرية فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

[1] - قاموس " Webster" ص 763 ، قاموس المورد ص 586 ، طبعة 1985.

[2] - مجلة الحرس الوطني، العدد 86 ، السنة 10، نفمبر 1989 ، ص 103.

ولكن محمد برادة يعكس الترجمة ويختلف في المفهوم حين عبر عن ذلك في مقالته التي نشرتها مجلة (فصول)، التي خصصت عددين كاملين للحداثة حيث يقول: "...تأخر ظهور الحداثة (la modernité) إلى منتصف القرن التاسع عشر، مع أن العصرية (le modernisme) بدأت ممهداتها في أوروبا منذ القرن السادس عشر"[3].

أما الدكتور كمال أبو ديب فيختلف عن ذلك حين يقول في مقالته في مجلة (فصول): "ولقد اقترحت في عمل سابق ترجمة المصطلح (Modernism) بـ"الحداثة"، ولأن (Modernism) حركة مميزة بل مذهب أو مدرسة... أما (Modernity) فإني سأستخدمها استخداما عاما بوصفها إشارة إلى سمات حضارية معينة، ويبدو لي أن الحداثة هي المصطلح الأقرب إلى تحديد مفهومها"[4].

والكلمة في أصلها الأوروبي مشتقة من كلمة (Modern)، ولقد أخذت هذه الكلمة في أوروبا رواجا تفاوت في الشدة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتفاوت بين بلد وبلد في أوروبا؛ فمن مقالات الناقد النرويجي "جورج براندر" سنة 1883م تحت عنوان "رجال الاختراق الحديث"، إلى المختارات الشعرية التي نشرت في ألمانيا سنة 1885م تحت عنوان "شخصيات شعرية محدثة" التي تدعو إلى تحطيم كل ما هو قديم وتقليدي، إلى مقالة "فرجينيا ولف" سنة 1888م تحت عنوان "أحدث التيارات الأدبية ومبدأ الحداثة".

ثم انطلقت لفظة الحداثة ومشتقاتها، وأقبل الناس عليها من خلال نزاع شديد حول مفهومها، حتى صدر كتاب "رحيل الحداثة" سنة 1909م لصامويل لبلنسكي في برلين، وامتدت الحداثة بعد ذلك على أنماط مختلفة وحركات عدة، حتى كانت سنة 1922م حين صدرت قصائد وروايات متعددة لشعراء وكتاب ارتبط اسمهم بالحداثة: قصيدة (الأرض اليباب) لـ(إليوت)، ورواية (يوليسيس) لـ(جويس)، وأناشيد (رلكة)، ومسرحيات (ومراث) وغير ذلك، مما جعل الناقد (هاري لفين) يعتبر سنة 1922م سنة المعجزات.

● ثانيا/- جذور الحداثة في تاريخ الإنسان:

متى بدأت الحداثة؟

---

[3] - مجلة فصول المجلد " 4" العدد 3 سنة 1984 ص 12.

[4] - المرجع السابق، ص 36.

اختلف في ذلك النقاد والمفكرون اختلافا كبيرا؛ منهم من اعتبر بدايتها في القرن السادس عشر، ومنهم من اعتبرها في القرن التاسع عشر، ومنهم من رأى أنها ابتدأت مع القرن العشرين. وكان من أسباب هذا الاختلاف اختلاف المفهوم للحداثة والعصرية وما يقصد منهما. ولكن هذه الفترات لا تمثل إلا "الحداثة" الحديثة، فالحداثة في بعض مفهوماتها التي سبقت الإشارة إليها قديمة في تاريخ الإنسان.

ف(جون رندل) John F Rundell في كتابه عن الحداثة " Origin of modernity. The origin of modern social theoryfromkant to hegel to Marx" يعيد جذور الحداثة إلى هؤلاء الثلاثة: "كانت"، و"هيجل"، و"ماركس". إنه يقول: "ليست الحداثة (Modernity) مجرد وجود تاريخي أو شيء يوفر الستارة الخلفية للمسرح لتاريخ الأفكار. ولكنها تأسيس للعلاقات الاجتماعية من خلال رأيين أو معنيين"[5]. ثم يبين "رندل" هذين الرأيين بأن أحدهما مرتبط بسلسلة تبين كيف بنيت هذه المناهج، ويبين أن هذه المناهج تتطور من خلال الإصلاحات المميزة لحركة التنوير الفلسفية على أساس العقلانية والحرية. ويورد رأي "إمانيويل كانت" حول جذور هذا التصور: "التنوير هو تحرر الإنسان من الوصاية القائمة بداخله، إن هذه الوصاية تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدرته على الإدراك والفهم دون توجيه من غيره. والإنسان لم ترشده الغريزة، ولم تغذه المعلومات الجاهزة. وإنما عليه هو أن يوفر كل شيء: مأواه، وطعامه، ودفاعه، وما يلهو به، وما يجعل الحياة ممتعة له، وعليه أن يؤمن هو نفسه البصيرة والذكاء، وأخيرا طيبة القلب".

لقد كان محور تفكير "كانت"، و"هيجل"، و"ماركس" يدور حول (الحرية والعقلانية) حسب مفهوم كل منهم لهما. لقد أقام "كانت" عالمين للعقل: العقل المطلق (pure reason)، والعقل العملي الواقعي (practical reason)، واعتمدت فلسفة "كانت" التصور الذي يرى أن معرفة الحقيقة تتم بالفكر لا بالتجربة، أي على أساس "الفلسفة الفكرية المتعالية (transcendantalism)، بينما اعتمد "هيجل" علم الوجود (ontology). واعتبر هيجل أن العقل المطلق هو الإله.

أما ماركس فقد عارض كلا من الفلسفتين من ناحية، واستفاد منهما من ناحية أخرى، واعتمد علم الإنسان (anthropology)، ليصوغ فكره صياغة تقوم على العمل، وصراع الطبقات، والإنتاج

---

[5] -JhonFundell, - The Origin of modernity. The origin of modern social theoryfromkant to hegel to Marx, - politypress – Cambridge – 1989 p1 , 2.

الاجتماعي، ورأس المال، وليضع نظرياته "الحداثية" في النقد، وليجعل الإنسان هو الإله الجديد في فكره ونهجه[6].

هذا الخط الفكري الفلسفي على الصورة التي عرضناها، نلمسه كذلك عند عدد غير قليل من الفلاسفة الأوروبيين، يعرضونه بصور مختلفة، كلها تلتقي عند نقطة واحدة هي التصور الذي اصطلح عليه بالتصور المادي. وإنا لنجده واضحا عند عدد من الفلاسفة الفرنسيين مثل: "لاميتري "، و"غولباخ" و"ديدرو". ثم جاء "لودفيج فيورباخ"، ثم "ماركس". لقد كان هذا التصور المادي في التاريخ يمثل انحرافا عن الإيمان تعبر عنه المادية ونظرياتها.

● **ثالثا/- عوامل ظهورها:** لقد ساعد على ظهورها في أوروبا تاريخ ممتد شارك بمختلف عصوره وأحداثه في ولادة هذه الظاهرة، ونذكر أهم هذه العوامل بإيجاز:

1- الأثر الممتد للفكر اليوناني والروماني (فكر وثني).
2- فشل الدين النصراني في تقديم التصور الإيماني الذي يشبع حاجة العقل للإنسان الغربي.
3- التقدم العلمي السريع في مختلف ميادين العلوم التجريبية والتطبيقية.
4- عزل الدين عن المجتمع (العلمانية).
5- نمو العلوم الإنسانية واتجاهها نحو العلمنة (علم النفس، علم الاجتماع...).
6- الثورة الصناعية في أوروبا وما ولدته من طبقية غذت الصراع المجتمعي.
7- انتشار الفساد الخلقي والانحلال والتهتك، وانفلات الشهوات الجنسية تحت شعار ممارسة الحرية الفردية.

---

[6] - المرجع السابق، ص 9 و10 .